

## مشروع توحيد الإيالات المغاربية في عهد الداى شعبان 1688-1695م

أ.د. صحراوي عبد القادر

جامعة سيدي بلعباس

البريد الإلكتروني: sahraoui1959@yahoo.fr

محمد عطية

طالبة دكتوراه ، جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2017/02/12

تاريخ الاستلام: 2017/01/10

عقدت الجزائر اتفاقية سلم وتجارة مع فرنسا في سبتمبر 1688م، و عندما تولى الداى شعبان الحكم كان أهم ما يؤرقه هو ايجاد مداخيل مالية لخرينة الايالة لتغطية مرتبات الجيش وقد نجح في تجاوز ذلك العجز. و في أواخر حكمه اضطرت أحول تونس مما استدعى تدخل الجزائر، حيث توجه نحوها الداى شعبان وهزم قوات الباى محمد المرادي و نصب ابن شكر بايا عليها، وعاد بغنائم كثيرة كانت سببا في نشوب خلاف بينه و بين خليل حاكم طرابلس الذي فر من أمامه و لم يحصل على الغنائم التي كان يريد، و بذلك اصبح الداى شعبان السيد الاول على ايالات شمال افريقيا بلا منازع عله يحصل على لقب بايلرباي كما حصل عليها سلفه الداى حسين ميزومورتو.

الكلمات الدالة:

الداى شعبان - ايالات شمال افريقيا- الجزائر- طرابلس - تونس- بايلرباي.

العنوان بالإنجليزية:

The project of unification of the Maghreb communities in the era of Dey Chaaban 1688-1695.

Abstract:

Algeria signed a peace and trade agreement with France in September 1668. When Dey Chaaban took rule, the most important problem he faced was finding financial incomes to fund regency treasury for military salaries. However, he succeeded in

doing so. At the end of his reign, many troubles happened in Tunisia which requires the intervention of Algeria led by Dey Chaaban who defeated Bey Muhammad Moradi's forces and appointed Ibn Chokr as a Bey there. He also came back with many spoils that were the cause of a dispute between him and Khalil, the ruler of Tripoli who escaped without any spoils. As a result, Dey Chaabane , with no competitor, became the first master over North Africa's Regencies in pursuit of title of Pacha Dey obtained by his predecessor, Dey Hussein Mezzo Morto.

### Key words:

Dey Chaaban- North Africa's Regencies- Algeria - Tunisia- Tripoli- first master

استطاعت الدولة العثمانية أن تفرض سلطتها على شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر ميلادي عبر مراحل متباينة وبدرجة متفاوتة، لعدة أسباب أبرزها الاحتلال الإسباني لهذه المناطق فالتواجد العثماني كان في زمن مبكر بالنسبة للمغرب الأوسط أما بالنسبة لطرابلس الغرب ثم تونس فقد كان متأخرا نوعا ما، مما أدى إلى وجود صعوبة كبيرة في إنهاء الاحتلال المتجذر، فضلا عن وجود حركات مناوئة لها من بقايا الحكم المحلي سابقا والتي كانت تحدث من حين لآخر. ومهما يكن من أمر فإن الدولة العثمانية بعد أن ضمت الجزائر عام 1519م، جعلت منها قاعدة لتحرير باقي الموانئ ومساهمة الاخيرة بشكل كبير في تحرير طرابلس الغرب عام 1551م، ثم تحرير بعض المناطق من البلاد التونسية ليتم القضاء نهائيا على التواجد الإسباني في قلعتي ميناء "حلق الوادي و" سان جون" سنة 1574م<sup>(1)</sup>. كان سنجق<sup>(2)</sup> تونس و سنجق طرابلس الغرب تابعين لإيالة الجزائر حسب الكثير من الكتابات التي تشير إلى ذلك خاصة بالنسبة لتونس التي ألحقت بإدارة الجزائر منذ عام 1569م<sup>(3)</sup>. وعلى أية حال فإن من كان يدير شؤون إيالة الجزائر هو البايبراي، ذلك المنصب الذي اقتصر على فئة قليلة ممن له باع طويل و نظرة ثاقبة وكفاءة عالية من بين رياس البحر الذين اشتهر بهم أسطول الجزائر طيلة القرن 16م تقريبا. ولم تلبث الأمور طويلا فقد سارعت الدولة العثمانية إلى تغيير نظام الحكم في الجزائر في عام 1587م، مما ترتب عليه فصل طرابلس الغرب و تونس عن إدارة الجزائر حيث أصبحتا إياليتين تابعتين رأسا لسلطة الباب العالي بإسطنبول.

وما يثير الاهتمام أنه على الرغم من مضي القرن تماما من هذه الأحداث التي شهدتها الإيالات المغربية بشمال إفريقيا واختلاف أنظمة الحكم العثماني فيها فقد برزت محاولة جادة لإعادة منصب البايبراي من قبل الداى شعبان من خلال مشروعه الطموح المتمثل في محاولة توحيد الإيالات المغربية من جديد تحت سلطته، فهل يمكن اعتبار أن هذه المحاولة كانت صدفة بوقوعها في هذا التاريخ بالذات؟ أم أن شخصية الداى الطموحة هي من أوجدت هذا المشروع. فمن يكون الداى شعبان؟ و إلى أي مدى نجح في تجسيد مشروعه؟

#### أولا- التعريف بالداى شعبان:

لا شك أن فترة حكم الداى شعبان كانت مميزة عن فترات حكم الكثير من الدايات الذين حكموا إيالة الجزائر ذلك أنه في الوقت الذي بدأت فيه عائدات النشاط البحري في التراجع المستمر مما أثر على مداخيل خزينة الإيالة بدت الخزينة الجزائرية وكأنها تحافظ على حالتها المعهودة في زمن الرخاء الاقتصادي بفضل جهود الداى الذي أوجد مصادر مالية معتبرة استطاع من خلالها سد النفقات الكثيرة وخاصة منها مرتبات الجند المتزايدة في هذه المرحلة الحرجة التي شهدت تنافسا أوربيا خطيرا خاصة بين فرنسا و انجلترا حول الامتيازات الاقتصادية الممنوحة لهم بإيالة الجزائر. فالداى شعبان لم يحظ كغيره من حكام الجزائر العثمانية بدراسات وافية تسلط الضوء على الكثير من جوانب شخصيته، على الأقل فيما يتعلق بمميزات حكمه، الأمر الذي جعلنا نفكر في البحث عن شخصية هذا الداى وطموحاته، حيث أننا لم نجد تواريخ معينة تبين مولده وأصله وأهم ما كان يشغل به حتى وصل إلى مرتبة الداى التي أهلته لإدارة شؤون الإيالة الجزائرية، وكل ما عثرنا عليه مجرد ومضات لا تتعدى العموميات.

يعد الداى شعبان من أشهر رياس البحر الذين اشتهرت بهم البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، كما يعد من أبرز المحاربين الذين تولوا منصب الداى، فقد تقلد منصب الحكم عام 1100/1689م<sup>(4)</sup> كداى رابع على الإيالة عندما عاد رياس البحر للحكم من جديد بعد الإطاحة بنظام الأغوات غير الطويل.

ولكننا نجد ازدواجية في التعريف بالداي سواء ما كتبه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله أو غيره إذ يصفه بأنه من طائفة رياس البحر ثم يصفه بأنه من ابرز المحاربين(؟) حسب ما ورد في مخطوطة الشهب المحرقة ، وعلى كل فإن من بين الآراء التي تتناسب و الوصف الأخير تقول بأنه بعد القضاء على آخر الأغوات المدعو علي آغا انفرد الرياس بالحكم ثانية نظرا للإختلالات التي صاحبت عهد الأغوات وبعد انقضاء حكم الداى الحاج حسين ميزومورتو نتيجة عدم إحرازه انتصارات عسكرية في تونس بسبب وباء الطاعون، آل الحكم إلى الداى شعبان الذي كان يشغل منصب آغا العسكر آنذاك<sup>(5)</sup>، كما أن الدكتور هلايلي حنيفي يورد في كتابه بأن الداى شعبان هو أول جندي انكشاري يعتلي منصب الدايليكية بعد ارغام الداى ميزومورتو على الاستقالة منذ الاطاحة بنظام الاغوات قبل خمسة عشرة سنة قد خلت<sup>(6)</sup>.

يُقال عن الداى شعبان أنه كان يظلم الناس كثيرا، وكان كثير قراءة القرآن، حتى أن المصحف الشريف لا يكاد يفارق يده، متواضعا في معيشته، آمنا في بيته، ولا يوجد عنده أحد إلا شيخ نصراني يقضي حوائجه وكان يخبره بمن هو آت إليه، ومن غرائب ما يُقص من شأنه أنه حفر قبره بيديه أثناء فترة حكمه، ومن أهم صفاته أيضا أنه كثير البكاء و كثير الصدقات ، ويحب جمع المال<sup>(7)</sup>. إن هذه الصفات التي أوردها صاحب "الشهب المحرقة" أحمد برناز تحمل الكثير من التناقضات، فكيف لمن يقرأ القرآن إلى هذه الدرجة التي وصفه بها ويهتم بالآخرة أيما اهتمام من خلال حفر قبره يقوم بظلم الناس و جمع المال.

ومما يجب الإشارة إليه أنه في هذه الفترة وبالضبط قبل سنتين تقريبا كان هناك واحدا من أهم البايات الذين تعاقبوا على حكم بايليك الغرب يدعى شعبان كذلك، كان قد أعتيل وهو محاصرا لمدينة وهران قصد استرجاعها من لدن الإسبان<sup>(8)</sup>، ولعل هذه المحاولات الحثيثة و المتكررة هي التي شجعت حكام الجزائر فيما بعد لافتتاك المدينة عنوة واسترجاعها. وهكذا بدا الداى شعبان وكأنه يكمل مسيرة الباي شعبان، ولكن ليس على رأس البايليك وإنما على رأس الإيالة الجزائرية بأسرها.

ثانيا- الأوضاع السائدة في بداية حكمه:

يظهر مما سبق أن الادي شعبان كان قد ورث عن سلفه الحاج حسين أوضاعا مزرية للغاية ، ليس فقط على الصعيد الداخلي وإنما حتى على المستوى الخارجي في الشق المتعلق بالعلاقات مع الدول الأوربية خاصة منها فرنسا ، ومن بين الأوضاع السائدة آنذاك في الجزائر نذكر منها مايلي :

أ- ازدواجية السلطة بين الريباس و الجند الإنكشاري التي كانت حجر الزاوية في صفاء العلاقات بينهما أو تعكرها<sup>(9)</sup>.

ب- تفشي وباء الطاعون القاتل الذي كان يفتك بالمئات من الأشخاص في اليوم الواحد في فترات متقاربة<sup>(10)</sup>.

ج- تراجع مداخيل الخزينة الجزائرية خاصة من عائدات النشاط البحري بسبب الحرب غير المعلنة من طرف الأوربيين على السفن الجزائرية.

د- توجيه القوى الأوربية لحمالات عسكرية على مدينة الجزائر كان أبرزها قبيل مجيئ الادي شعبان حملة المارشال دوستري (d'estrées) التي حلت قبالة السواحل يوم 02 رمضان 1099هـ/28 جوان 1688م<sup>(11)</sup>.

بقيت حملة المارشال دوستري أمام مدينة الجزائر لمدة خمسة عشر يوما، قذفت المدينة خلالها بعشرة آلاف قنبلة، فكانت النتيجة كارثية على السكان والعمران، و ليس هناك إحصائيات واضحة تبين عدد القتلى وكل ما كتب عنها يخبرنا بأنه تم إغراق خمسة سفن حربية جزائرية كانت راسية في ميناء المدينة. لقد أحدثت هذه الحملة هلعا كبيرا في نفوس السكان كما ولدت لدى القادة استياءً كبيرا أدى في آخر المطاف إلى الانتقام من الفرنسيين الذين كانوا موجودين في المدينة حيث تم القبض على أربعين منهم و وضعهم في فوهات المدافع التي أردتهم أشلاءً، وكان من بين هؤلاء القنصل الفرنسي بيول (Piolle)، بعدها انتقم قائد الحملة من بعض الأسرى المسلمين الذين كانوا لديه شر انتقام<sup>(12)</sup>. ولكن هذه الازمة انتهت بتوقيع اتفاقية صلح و انهت حالة التوتر، حيث ستشهد العلاقات تحسنا كبيرا على الاقل لن تكون كما كانت. قبيل نهاية حكم الادي الحاج حسين ميزوموتو (1683-1688م) كانت هناك مفاوضات تجري على قدم وساق بين الطرفين الجزائري والفرنسي من أجل عقد اتفاقية للسلم، وواضح هنا أن فرنسا هي التي طلبت عقد هذه الاتفاقية ولم تطلبها الجزائر، نتيجة تضرر مصالحها في

الجزائر و البحر المتوسط، وعليه تم عقد الاتفاقية بين الطرفين في 19 سبتمبر 1689م عرفت بمعاهدة مارسيل قيوم (Marcel Guillaume)<sup>(13)</sup>.

### ثالثا- مظاهر حكمه :

تدل الحملة الفرنسية الاخيرة على بلوغ العلاقات بين البلدين أسوء درجاتها، فإن الداى حاج حسين ميزمورتو كان قد خرج منتصرا على جيوش الملك الفرنسي لويس الرابع عشر "الملك الشمس" حيث انه كان قد أثلج صدر السلطان العثماني الذي منحه لقب "بايلرباي"<sup>(14)</sup>. وهكذا فإن خليفته الداى شعبان لم تشغله العلاقات مع فرنسا كثيرا فالرجل أراد أن يكمل مشروع سلفه بالحصول على هذا اللقب ولكن ليس قبل أن يسيطر أو بالأحرى يعيد حكم إيالتى تونس وطرابلس الغرب للجزائر، إذن مشروع توحيد الإيالات المغاربية والحصول على لقب البابلرباي من لدن السلطان العثماني لم يكن من أفكار الداى شعبان وإنما كان قبله، فهل سيستطيع الداى الجديد حمل هذا اللقب الذي كان موجودا قبل قرن من الزمن؟

### - التدخل في شؤون تونس:

على الرغم من أن الداى شعبان كان منهمكا في إيجاد ترضية لأعضاء الديوان الناقيمين على سلفه و التخفيف من غضبهم و بالتالي الخروج من هذا الموقف المحرج الذي كثيرا ما وقع فيه حكام الجزائر نتيجة تراجع عائدات النشاط البحري. فانه بالمقابل كانت الأمور في إيالة تونس ليست على ما يرام و تستدعي التدخل من طرف الجزائر ككل مرة لفض النزاع المحتدم على السلطة، فهذا ابن شكر يوشك أن يقوم بانقلاب على الباى التونسي، ويعرف ابن شكر بكاهية الباى محمد المرادى التونسي، وفي الوقت نفسه هو صهره أي زوج أخته. كان في البداية مخلصا لسيدته ولم يخطر ببال محمد المرادى أن يفكر بن شكر هذا التفكير، فمارسته للحكم عن كثب من خلال تواجده الدائم بجانب الباى بل و البت في العديد من القضايا، ولدت لديه رغبة في اعتلاء عرش البايات في تونس على الرغم من أنه لا يمت بصلة للأسرة الحاكمة، إن هذه الاطماع غير البسيطة ستؤدي إلى التخلص من الباى الذي لم يمض فترة طويلة على تقلده المنصب، ولن يكون ذلك إلا بإقحام الجزائر مجددا في هذا النزاع فكيف تم له ذلك، خاصة وأن الداى شعبان لم يكن ممن يسهل التأثير فيهم وإغرائهم.

## أ- قدوم ابن شكر إلى الجزائر :

لم تكن الوجهة الحقيقية للكاهية هي الجزائر وعلى ما يبدو كانت لديه أغراض أخرى، فقد قام باستئذان الباى لأداء فريضة الحج، وهذه هي عادة الكثير ممن حكموا تونس عندما يحسّون بالخطر ممن سبقهم كإبراهيم رودسلي أول من حكم في عهد الدايات فعندما أحس بالخطر طلب أداء فريضة الحج فسُيح له بذلك، شريطة عدم عودته، وقد تبعه كم من واحد في هذا الأمر، و الكاهية ابن شكر واحد منهم بيد أن أمره لم يكن على الشاكلة نفسها. غادر ابن شكر عن طريق البحر، وفي طريقه اعترضه قراصنة فرنسيون نهبوا أمواله و أغراضه، فلم يعد بوسعه إكمال طريقه فغيّر وجهته نحو الجزائر التي نزل بإحدى مراسيها. وكان في هذه الفترة إبراهيم خوجة الذي ظفر بالنصر في تونس قبل سنتين، مُحاصرا لمدينة وهران، وكان في منصب الداى كما سبق و أشرنا الباشا حسين ميزومورتو، الذي استقبل الكاهية أحسن استقبال<sup>(15)</sup>. على الرغم من تغيير الحكم في الجزائر الذي آل إلى الداى شعبان، إلا أن ابن شكر بقي يَزِنُ على أذن الداى ويحرضه ضد باى تونس محمد المرادي؛ إذ استطاع في الأخير إقناع الداى شعبان بقطع علاقاته بتونس<sup>(16)</sup> كخطوة أولى، بعد أن رفض الاعتراف بفضل الجزائريين الذين يعود لهم الفضل في تنصيبه، منذ أربع سنوات قد خلت، عندما تم دحر قوات الداى أحمد شلبي وعمه محمد الحفصي، ولن يتم ذلك إلا بعد أن تتحسن الظروف وتكون الفرصة مواتية للقيام بأي عمل من هذا النوع<sup>(17)</sup>.

كانت الحرب الدائرة بين الإيالتين الجزائرية والتونسية طويلة، ومع أواخر القرن السابع عشر ميلادي، كانت قد تعدت إلى الدخول في تحالفات أخرى مع إيالة طرابلس، ولم نعد نميز الأسباب الحقيقية التي أدت إلى حدوث هذه الاضطرابات. إن توسع دائرة الصراع إلى طرابلس الغرب، سيزيد الأمور تعقيدا و يدفع بحكام الإيالات إلى التفكير جليا في إعلان الاستقلال عن سلطة الباب العالي الذي كان يعاني من مشاكل هو أيضا، وكثيرا ما تظاهر السلاطين بعدم اكتراثهم بما يجري في ولاياتهم الغربية البعيدة عن نظرهم.

يجب علينا قبل الخوض في هذه الحرب أن نوضح بأنّ الحرب القائمة، إنما هي حرب بين الجند الإنكشاري القادم من الدولة العثمانية في إطار سياسة التجنيد؛ لأنّ المعارك التي دارت رحاها ولا زالت

مستمرة، المتسبب فيها بالدرجة الأولى هم حكام هذه الإيالات وجندهم المتكون من الأتراك والماليك<sup>(18)</sup>. ولم تشارك القبائل العربية إلا نادرا فهؤلاء بقوا دائما خارج حلبة الصراع، إلا إذا حلّ الصراع بأقاليمهم فسيجدون أنفسهم مضطرين إلى الوقوف إلى جانب طرف معين حسب مصالحهم. استدعى الداى شعبان قبل القيام بأية خطوة أعضاء الديوان للإجتتماع، قصد اتخاذ القرار بشأن إعلان الحرب على تونس<sup>(19)</sup>، وهذا شأن أي داي عندما يواجه قضية مماثلة، خاصة إذا تعلقت بالعلاقات الخارجية، لضمان الولاء والمساندة، حتى وإن كان هناك إخفاق فإنّ مصير الداى يُقرر من طرف ضباط الإنكشارية المتغربين، و النافذين في الحكم. وإذا عدنا إلى الصراع الثلاثي فإنّ صاحب كتاب التحفة المرضية لم يذكر أمر تحالف الجزائريين و الطرابلسيين في هذه المعركة وإنما اكتفى بذكر استيلاء الجزائر على تونس، عام 1105هـ/1694م<sup>(20)</sup>.

- أسباب التدخل في تونس :

يجب الإشارة إلى أن أسباب هذه التحالفات مختلفة وسنذكر بعضها:

- 1- تحالف الباى محمد التونسي مع مولاي إسماعيل المغربي لمهاجمة الجزائر في آن واحد، كل من جهته ومساندة فرنسا للتونسيين بالسلاح والمؤن وغيرها<sup>(21)</sup>.
  - 2- تحريض ابن شكر للداى شعبان بالاستيلاء على تونس، انتقاما من الباى محمد المرادي.
  - 3- محاولة الجزائر القضاء على هذه التحالفات، التي كادت أن تنتظم في ضربة واحدة تنهي وجود الإيالة الجزائرية.
  - 4- رفض الباى التونسي دفع الضرائب التي أقرّ بها للجزائر في المرة السابقة عند تنصيبه.
  - 5- الفتنة القائمة بتونس ضد البايات، الذين تم تعيينهم من طرف حكومة الجزائر، كابن شكر وأحمد بن الشقيير<sup>(22)</sup>.
  - 6- مراسلة داي طرابلس الغرب للداى شعبان يطلب منه مساعدته على الباى محمد المرادي الذي كان يخطط لعمل ضد الإيالتين الجزائرية و الطرابلسية نتيجة حشده لجيش من الترك وغيرهم<sup>(23)</sup>.
- على إثر هذا الادعاء الأخير جهّز داي طرابلس المدعو محمد الإمام، جيشا يتكون أساسا من الجند الإنكشاري وأرسله عن طريق البحر حيث تم إنزاله بميناء عنابة، في عام 1105هـ / 1694م،

و كانت هي مكان لقاء المحلتين الجزائرية والطرابلسية المتفق عليه. يُذكر أن هذه المعركة كانت عام 1694م<sup>(24)</sup>، و كان تعداد جنود المحلة كبيرا جدا، و قادها الداى شعبان الذي تتوَق نفسه إلى تأديب باي تونس، و قطع رأسه لمخالفته الأوامر وعدم أداء ما عليه من الأموال، وهناك من يقول أن أساطيل الجزائر وطرابلس حاصرت تونس أي أنها كانت حربا بحرية<sup>(25)</sup>.

لما عَلم الباى محمد بقدوم المحلتين، سارع إلى حشد جيوشه المؤلفة من أربعة عشرة ألف جندي، وسبعمائة خيمة و سار بها نحو الغرب، و التقى الطرفان في مدينة الكاف، هذه البلدة التي رَوَتْ أرضها بدماء المسلمين<sup>(26)</sup>، ومن الهولة الأولى انكسر جيش الباى حيث ولى الأدبار مسرعا، قافلا إلى عاصمته مدينة تونس، لعلها تكون ملاذ الآمن<sup>(27)</sup>، ومن أسباب هزيمته خذلان العرب له من أولاد سعيد وغيرهم ممن تبعهم، وقد تمخضت عن المعركة نتائج كثيرة.

#### ج- نتائج معركة الكاف:

كان لهزيمة باي تونس وقعا كبيرا، خاصة على مدينة تونس و أهاليها ومن أهم نتائجها نذكر:

- 1- الذعر الكبير الذي أصاب الأهالي، من جراء الهزيمة المنكرة التي مُنيَ بها جيشهم، و ما يمكن أن يحصل بعدها، فالعواقب كثيرا ما تحمل وزرها الاهالي دون الحكام.
  - 2- تعطل أعمال الأهالي كالفلاحة في البساتين المجاورة لمدينة تونس، و في طريق الجيش الجزائري القادم نحو مدينة تونس لتنصيب الباى الجديد و فرض الامن.
  - 3- توقف الحركة التجارية المتنقلة في الأسواق الداخلية اليومية و الأسبوعية.
  - 4- أخذ الأهالي للحيطه والحذر وتديبير شؤونهم بنفسهم للصدود.
  - 5- هروب الباشا رمضان و الداى علي ريس إلى أوروبا<sup>(28)</sup>.
  - 6- حصول قائد الجيش الجزائري و حليفه غنائم كثيرة في هذه الحرب، بالإضافة إلى إلزام الرعية بدفع أداءات مالية سنوية مستقبلا قيل أنها كانت كبيرة و تفوق طاقة خزينة تونس<sup>(29)</sup>.
  - 7- ضرب محلة الجزائر و حليفها للحصار على مدينة تونس<sup>(30)</sup>.
- د- حصار مدينة تونس 1694/هـ 1105 م:

سارت الجيوش المتحالفة و المنتصرة في معركتها الأولى نحو مدينة تونس بخطى متثاقلة، واثقة من نفسها، و بعد شهر من الهزيمة التي ألمت بالباي، وصلت المحلّتين إلى أسوار مدينة تونس، و ضرب حصار حولها فاقت مدته ثلاثة أشهر، إذ أمطرت المدينة من خلاله بقذائف المدافع وتم تبادل إطلاق النار بين الجانبين، و مهما يكن من أمر التحصينات و المؤن التي تم جمعها فإن مدة الحصار كانت طويلة تكفي لإفناء ما جمعه الأهالي طيلة شهر، بداية من المعركة حتى تاريخ ضرب الحصار. لذا نجد أن أهالي المدينة ظهر عليهم الملل و القلق الذي كان يتزايد يوما بعد يوم ولم تظهر في الأفق بوادر لانفراج الأزمة. بناء على الضغط الكبير و المتزايد على الباى التونسي و الأهالي من جهة، و قوة المحلّتين من جهة أخرى، خاصة بعد إحراز نصر كبير في معركة الكاف، انضمت العديد من القبائل إلى الجزائريين و الطرابلسيين، هذا بالإضافة إلى الأنباء التي كانت قد زاعت و مفادها أنّ مرسى غار الملح الذي يحتوي على مخازن الأسلحة التونسية و القطع البحرية و بعض القبائل، قد اعترفت بسلطة محمد بن شكر كباي على البلاد، مما سيعرض حكم الباى محمد المرادي إلى مهب الريح و مصيره سيكون مسألة وقت لا غير<sup>(31)</sup>.

#### هـ- نتائج حصار مدينة تونس:

يبدو أن الحصار كان خانقا لحد أن الرعية ثارت في وجه الباى محمد المرادي و تمتنت نهاية سعيدة لهذا المأزق الكبير، ولم يجد الباى أي طريقة للنجاة سوى الهروب حيث فرّ من المدينة، يوم 24 ربيع الأول 1106هـ / نوفمبر 1694م<sup>(32)</sup>، و توجه صوب مدينة القيروان التي منعه أهاليها من دخولها، و بذلك بقي هائما على وجهه في الصحراء. بعد أن تأكدت الرعية من فرار الباى طلبوا الصلح من الداى شعبان الذي قبل به و منحهم الأمان و بالمقابل أعلنوا و لائهم التام له. أدى هذا إلى نجاح ابن شكر في تنفيذ مساعيه و مخططاته الرامية إلى السيطرة على مقاليد الحكم بتونس؛ حيث تم تنصيبه بايا عليها، و تولية داى جديد كي لا يجد معارضة من قبله<sup>(33)</sup>. و كنتيجة لهذا الولاء فإنّ داى الجزائر اعتبر الحاكم الجديد تابع له، و من مظاهر ذلك أنّهم منحوا امتياز صيد المرجان للفرنسيين بجزيرة طبرقة<sup>(34)</sup>. وقد أشار صاحب الحوليات التونسية أن الحكومة الجزائرية أرادت الاستفادة من انتصاراتها التي

حققها جيشها في تونس لتوسيع حدودها الشرقية على حساب تونس، حيث استند في ذلك إلى وثيقة مؤرخة، في عام 1693<sup>35</sup>.

وإذا نظرنا بتمعن لهذا القول فإننا نرى بأن الانتصارات كانت، عام 1694م، وهو قد ذكر بأن الوثيقة مؤرخة عام 1693م، وهنا المعركة لم تجر بعد ولم ينتصر الجزائريون كذلك، حتى يحققوا أطماعهم التوسعية، كما أنهم لو أرادوا ذلك لألزموا حكّام تونس على تغيير اتفاقية رسم الحدود الموضوعة منذ عام 1628م، وتكون بذلك التوسعات محكومة باتفاقيات ولا يلجئوا لهذا الأسلوب الضعيف ماداموا في موقف قوة، ولأقاموا حكّاماً جزائريين لضمان التبعية، أو حكّاماً تابعين لهم لا يساورهم أدنى شك في ولائهم. كنا قد أسلفنا القول بأن الجزائريين كانوا يمارسون الوصاية على تونس من منطلق أنهم كان لهم الفضل في تحريرها وأواخر القرن المنقضي، وما على بايات تونس إلّا الاعتراف بذلك والإقرار بأمر التبعية، أمّا بالنسبة لامتياز صيد المرجان فإن الجزائر كان لها نصيب من مرجان طبرقة في عهد صالح باي قسنطينة<sup>36</sup>، ونحن نجهل تاريخ بداية الاستفادة من هذه المادة الحيوية التي أسالت لعاب فرنسا بالدرجة الأولى. كما أن الحصول على ضرائب صيد المرجان بهذه المنطقة لا تعني بأنها خاضعة للجزائر أو تمارس عليها السلطة الكاملة، وعلى أيّة حال قريبا من الحدود الجزائرية ووجود مراكز صيد المرجان الرئيسية شرق الجزائر بسواحل عنابة، جعل منها محط أنظار حكّام الجزائر ولم يفكروا في ضمها للإيالة وربما لو أرادوا لفعلوا ذلك ما داموا في موضع قوة.

كان خوف أهالي مدينة تونس من عمليات النهب و الاغتصاب التي عادة ما تصاحب هذه الأوضاع كبيرا، إلّا أنّ ذلك لم يحدث ماعدا بعض التجاوزات التي أحدثها جند الجزائر، بعد أن سکروا، عندما وجدوا مخزوناً من الخمر في دهاليز السجون التي اقتحموها. بعد المعركة تم تنصيب ابن شكر بايا و فرض عليه الادي شعبان دفع مبلغ خمسمائة ألف قرش كمقابل لدعمه له، منها مئة ألف للداي و الباقي لخزينة إيالة الجزائر. وبمقارنة حجم المبالغ المفروضة مع ظروف تونس القاسية في هذه الفترة سوف لن يستطيع الباي الجديد أداء ما عليه من الأموال، إلّا بالعودة إلى اضهاد الرعية وسلب أموالها دون رحمة وشفقة<sup>37</sup>.

قرر الداى شعبان العودة إلى الجزائر بعد ما تم فرض الاستقرار في تونس؛ حيث تنتظره مهام جسيمة وعلى رأسها قضية تحرير وهران، وإيجاد مصادر مالية أخرى للخرينة الجزائرية، وهكذا غادر الداى و كان محملا بل مثقلا بغنائم كثيرة، وأخرى وُعدَ بالحصول عليها لاحقا<sup>(38)</sup>، و عليه صودرت أموال الأهالي في مدينة تونس بقرار من الباى الجديد محمد بن شكر ليوفى بوعدته نظير مساعدته<sup>(39)</sup>. ويقال أنه عند مغادرة الداى شعبان لمدينة تونس تخاصم مع صاحب طرابلس وقائد محلتها خليل الأرنؤوطي، وبعيدا عن الاختلافات الواضحة، نجد أن خليل تخاصم مع الداى شعبان حول الغنائم المتحصل عليها، حيث اعتبر الأخير أن ما غنمه خليل من المراكب التونسية في مرسى غار الملح وغيرها هو كل حصته ولا أكثر، إلّا أنه كان يطمع في غنائم المدينة، عندها شتم خليل الداى شعبان الذي استشاط غضبا؛ وكاد أن يقتله و قصفت مدافع الجزائريين سفن طرابلس من القلاع الحربية بعد مغادرتها لمرسى حلق الوادي<sup>(40)</sup>.

وهكذا بعد أن نصب الداى شعبان خليفته ابن شكر على رأس إيالة التونسية، وها هو خليل صاحب إيالة طرابلس الذي كان بالأمس القريب حليفا له، واليوم يفر من وجهه خوفا منه بسبب الغنائم. يكون الداى شعبان هو السيد الوحيد للإيالات المغاربية الثلاث، ولكن ذلك لن يكفي إلا بمباركة من سلطات الباب العالي ومنحه لقب بايلرباى شمال إفريقيا<sup>(41)</sup>، كما كانت تفعل من ذي قبل مع البايبربايات في القرن السادس عشر ميلادي، فهل سيستطيع الداى المحافظة على هذه التبعية له والحصول على اللقب كما كان يتمنى؟

غادر الداى شعبان على رأس جيشه مفضلا طريق البر، ورافقه ابن شكر لتوديعه، كما نقل جزءاً من الجيش عن طريق البحر وكان ذلك في 17-01-1695م، ومباشرة بعد الرحيل فإن دوامة العنف والتقاتل على السلطة في تونس لم تكن لتهدأ وكأنها قدر محتوم على أهاليها؛ إذ ثارت الرعية من جديد على الباى محمد بن شكر مرة أخرى وخلعته، ولطالما سئمت الرعية من الحكام الذين تنصبهم الجزائر بسبب الضرائب التي يباشرون جمعها لتسدّد ما عليهم لأسيادهم حكام الجزائر<sup>(42)</sup>. ولكن طائفة الجند الإنكشاري عزمت على منع دخول هذا الباى إلى الجزائر كي لا يتمكن من الاستنجاد بالداى ثانية، ويدخلهم في حرب هم وقودها، وبالمقابل هدّدت الداى شعبان في حالة عودته إلى تونس

بالانتقام منه ولكن الداى لم يكن ممن يخشون التهديدات فقد صمم على محاربة المتمردين على سلطته في الجزائر و تونس للحصول على الأموال التي كانت الخزينة بحاجة إليها.

و هناك عقبات كثيرة وكبيرة كانت تعترض الجزائر بل وتشغلها عن مسائل أكثر حيوية، كما أثرت بشكل مباشر على إدارة الداى لأمر الإيالة، ولعلها كانت تحدث في غير محلها، ذلك أن الإنجليز، في سبتمبر من عام 1694م، اغتنموا فرصة غياب الداى شعبان وتواجهه في توس و اقترحوا على ديوان الجزائر أن يعلن الحرب على فرنسا مقابل مبالغ مالية معتبرة وعتاد حربي وهدايا كثيرة، بيد أن الديوان رفض ذلك متحججا بعدم البت في مثل هذه القضايا التي هي من شأن الداى وحده، وعندما عاد الداى شعبان أكد هذا الرفض. كل هذه المساومات كانت بعد استرجاع فرنسا لمؤسساتها التجارية بالقالة، بعد أن كانت بيد الإنجليز منذ عام 1684م<sup>(43)</sup>. وهو ما يفسر حرص القنصل الفرنسي بتونس سورهان (Sorhaïnde) بتتبع مجريات الحرب و معرفة ما ستؤول إليه الامور هناك<sup>(44)</sup>.

عقدت فرنسا اتفاقية سلم و تجارة مع الجزائر، في مطلع 1694م، يدل هذا على أن التنافس كان على أشده بين الأوربيين على خدمة مصالحهم الشخصية على حساب مشاكل الآخرين بواسطة الأموال والهدايا، التي كانوا يبتذلونها لقاء ذلك، وهكذا فإن موت الداى شعبان لم يخدم التونسيين فحسب بل حتى الفرنسيين، وعندما تقلد الداى أحمد حكم الجزائر(1695-1698م) أمر باحترام المؤسسات الفرنسية، كما أقرّ بدمج شركة الرأس الأسود بطبرقة و مؤسسة القالة في مؤسسة واحدة<sup>(45)</sup>.

هذا ما يثبت لنا مرة أخرى، استفادة الجزائر من ضرائب مرجان جزيرة طبرقة. إنّ التصرفات الأحادية للداى شعبان وحكّام الإيالات الثلاث والحروب فيما بينها أزعجت الباب العالي، حيث عبر عن سخطه لما يجري هناك متسائلا عن الأسباب الكامنة وراء هذه الحروب<sup>(46)</sup>.

أثرت الحرب المستمرة وحالة عدم الاستقرار على أوضاع الجزائر الداخلية، و أرهقت الجند، كما ساهمت كذلك في إثارة الفلاقل والفتن و تأليب فرق الإنكشارية على الداى، بداية من فرق الجيش التي كانت تحرس الحدود الشرقية الجزائرية، حيث اتجهت نحو مدينة الجزائر للفتك بالداى المنتصر، فكيف الحال إن كان منهزما. ولم نجد أسباب هيجان الإنكشارية في المصادر، وهذا ما أدى إلى اختلاف الآراء حول نهايته.

#### رابعا- نهايته المساوية :

كانت نهاية الداى شعبان مساوية للغاية ، و نجد سبباً أو اثنين ربما يكونا كافيين لفهم المأساة ، التي أنهت حياة هذا الداى ومنها :

أ- أنه قرر العودة لحرب تونس لمساندة الباى محمد بن شكر بعد رفضه للصلح الذي تقدم به باى تونس الجديد<sup>(47)</sup> .

ب- أنه لم يعط للجند الذين حاربوا معه من الغنائم ما يكفي ، لقاء ما بذلوا من عناء في الحرب . تعرض الداى شعبان لمحاولة إغتيال أولى أثناء تأديته لصلاة الجمعة ، عندما هم أحدهم بأن يقتله بالرصاص ثم بالشاقور ، ولكن الداى أحس بذلك وفرّ من المأزق الذي كان لا يحسد عليه . ومهما يكن فإن الداى شعبان حاول عبثاً أن يثني القوات المتمردة عليه بزعامة محمود خوجة<sup>(48)</sup> على ما عزمته عليه ، حيث بعث جماعة موثوق بها يتزعمها القاضي والمفتي الحنفيان ولكن دون جدوى ، و كحلّ بديل فتح الخزينة ووزع الأموال على الجند ، بمدينة الجزائر ليقفوا معه ضد الفرق المتمردة ولكنهم ساعدوا الجند الثائر في القبض على الداى بدل مساعدته<sup>(45)</sup> ، حتى اولئك الكراغلة الذين سمح لهم الداى بالانتساب لفرق الاوجاق و لو جزئيا لم يقفوا معه<sup>(49)</sup> .

بعد أن تم إيداع الداى السجن ويكون هذا السجن هو سجن سركاى اليوم ، لم يكن الداى يفهم ما هو سبب هذا الانقلاب عليه ، حيث كان قد استفسر من المتمردين عن ذلك فأجابوه بأن ظلمه للناس هو من أدى بهم إلى ذلك وأثناء وجوده بالسجن يقال أنه طلب بأن يوضع له قنديل للإنارة كي يقرأ القرآن ، ولكن حراس السجن أخبروه بأن الداى منع ذلك ويقصدونه هو ، حيث كان من قبل قد أمر بإزالة القناديل من السجن ، وفي وقت لاحق قام سجانوه بتعذيبه كي يريهم مخبأ الأموال التي بحوزته فقال لهم كيف أستطيع ذلك وأنا تحت التعذيب فطلب منهم الأمان له ولعائلته بعدها يخبرهم بمكان الأموال وعندما هم هؤلاء بذلك كان الداى الجديد قد سارع إلى خنقه في السجن خوفاً منه<sup>(50)</sup> .

كثيرة هي الانجازات التي حققها الداى شعبان في مدة قصيرة جدا لم تتعد الستة سنوات في سبيل استقرار الايالة ، ومواقفه الصلبة ازاء التنافس الاوربي بقيت شاهدة عليه ، و لكنه لقي المصير نفسه الذي لقيه كم من واحد من حكام ايالة الجزائر العثمانية خاصة منذ عهد الأغوات وبموته قُبر مشروعه

الوحدوي وانتهى حلمه في أن يكون بايلربايا جديدا للمنطقة بسرعة كبيرة، ولم نجد محاولات جادة لتوحيد شمال افريقيا تحت سلطة واحدة كما كانت منذ القرن الثالث عشر ميلادي، إلا في عهد الاستعمار الفرنسي الذي سعى لتوسيع نفوذه خدمة لمصالحه، فكيف لم تكن هذه المصلحة بالذات من اهتمامات حكام الايالات المغاربية مثل الداى شعبان على الاقل في التصدي للمحاولات الاستعمارية الاولية التي انهكت قواها و جعلت منها لقمة سهلة للعدو.

#### الهوامش:

- (1) هلايلي، حنفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر2008م، ص ص43-44.
- (2) هو جزء من الإيالة يتكون من أفضية التي تتكون من نواحي والنواحي من قرى.
- (3) البشروش، توفيق، جمهورية الدايات في تونس(1591 – 1675)، شركة اوريبيس للطباعة، تونس1992م، ص ص29-30.
- (4) سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت2005م، ص ص322.
- (5) غطاس، ن عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954م، الجزائر2007م، ص ص56.
- (6) هلايلي، حنفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ص ص95.
- (7) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص326.
- (8) المزاري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر واسبانيا و فرنسا، تحقيق بوعزيز يحي، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2008م، ص ص228.
- (9) غطاس، عائشة، المرجع السابق، ص ص56.
- (10) وولف، جون ب، الجزائر وأوربا 1500-1830م، ترجمة و تعريب سعد الله أبو القاسم، دار الرائد، الجزائر 2009م، ص ص158.
- (11) ابن عبد الكريم، محمد، مقدمة كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ل ابن ميمون محمد الجزائري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر2007م، ص ص22.
- (12) نفسه، ص ص22.
- (13) بوعزيز، يحي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2009م، ص ص89.

- (14) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص55.
- (15) روسو، ألفونسو، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا 1992م، ص 140.
- (16) نفسه، ص141.
- (17) المدني، أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، دار البصائر، الجزائر 2009م، ص64.
- (18) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 141.
- (19) De Voulx ( A), Tachrifat, Recueil De Notes Historiques, Alger, Imprimerie du Gouvernement, 1852, p11 .
- (20) ابن عبد الكريم، محمد، المرجع السابق، ص25.
- (21) قتان ،جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2007م، ص142.
- (22) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص 25.
- (23) ابن غليون، الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب (التذكار)، تعليق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ، ص ص154-155.
- (24) ابن أبي الضياف، أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج1، ج2، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس 2004م، ص 63.
- (25) فيرو ،شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ليبيا، ص 234.
- (26) De Voulx, Tachrifat, op. cit, p11.
- (27) Maggil (M,Thomas), Nouveau voyage a Tunis, publié en 1811, Paris, editeur de dictionnaire des sciences médicales, 1981, p76.
- (28) روسو ،ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.
- (29) ابن عبد الكريم ،محمد، المرجع السابق، ص 25.
- (30) مقديش ،محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق الزواري علي ومحفوظ محمد، ط1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، ص136.
- (31) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.
- (23) Maggil (M,T) , op. cit, p77.
- (33) حسن ،حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب، تونس 2015م، ص122.

- (34) جزيرة تونسية قريبة من شاطئ البحر والحدود الجزائرية التونسية، ذات شكل مثلث، استغلها الجنويون مقابل ضرائب تدفع لحكام الإيالتين قبل 1740م حيث استرجعها علي باشا الحسيني، وأبقى نصيبا من ضرائبها للجزائر. أنظر: بيسونال جون أندري، الرحلة إلى تونس 1724م، ترجمة و تحقيق السنوسي محمد العربي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003م، ص 147.
- (35) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.
- (36) مراسلات بايات قسنطينة، مخطوطة بالكتابة الوطنية الجزائرية، رقم 1641، ورقة 6.
- (37) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 143.
- (38) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.
- (39) مقديش محمود، المصدر السابق، مج 2، ص 137.
- (40) روسو، ألفونسو، المرجع السابق، ص 143.
- (41) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.
- (42) جون، وولف، المرجع السابق، ص ص 365 – 366.
- (43) بوعزيز، يحيى، المرجع السابق، ص 92.
- (44) Garrot Henri, Histoire générale de l'Algérie, Alger, imprimerie P. Grescenzo, 1910, p .
- (45) Plantet (Eugène), Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T1,(1579-1700), paris, 1889,p441.
- (46) قنان، جمال، المرجع السابق، ص 143.
- (47) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص 326.
- (48) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.
- (49) هلايلي، حنيفي، المرجع السابق، ص 81.
- (50) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص 326.